دروس في مصادر اللغة والأدب والنقد

1-مصادر اللغة:

1-1-المعاجم العربية:

1-1-1-معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيديّ(ت: 175هـ):

أ- مدرسة الترتيب المخرجي(الصوتي):

معجم العين للخليل: رائد هذه المدرسة هو الخليل بن أحمد(ت: 175هـ)، الذي امتاز بعقلية رياضية، وبراعة في الموسيقى والنغم. وخبرة واسعة بأمور اللغة ومشكلاتها. وقد صبّ الخليل كل خبراته هذه في معجمه الذي سماه "العين"، والذي يعدّ أول معجم عرفته اللغة العربية. وقد أثيرت شكوك حول كتاب العين شملت المؤلف نفسه أهو الخليل أم غيره. كما شملت احتمال وجود تأثير أجنبي على معجم العين. وهذه القضايا لا تعنينا بقدر ما يعنينا المعجم ونظامه (منهج تأليفه). ونتحدث الآن عن مؤلف العين **الخليل بن أحمد.**

الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت: 175هـ) هو الإمام، صاحب العربية، ومنشىء علم العروض، أبو عبد الرحمن، الخليل بن أحمد الفراهيديّ، البصريّ، حدث عن: أيوب السختياني، وعاصم الأحول، والعوام بن حوشب، وغالب القطان. أخذ عنه سيبويه النحو، والنضر بن شميل، وهارون بن موسى النحوي، ووهب بن جرير، والأصمعي، وآخرون. وكان رأسا في لسان العرب، ديّنا، ورِعا، قانعا، متواضعا، كبير الشأن. يقال: إنه دعا الله أن يرزقه علما لا يسبق إليه، ففتح له بالعروض، وله كتاب "العين" في اللغة. وثقه ابن حبان. وقيل: كان متقشفا، متعبدا. قال النضر: أقام الخليل في خص له بالبصرة، لا يقدر على فلسين، وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال، وكان كثيرا ما ينشد:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجدْ ذخرا يكون كصالح الأعمال.

وكان - رحمه الله - مفرط الذكاء. كان هو ويونس إمامي أهل البصرة في العربية، وكان العلماء يغرفون من بحره. وهو معدود في الزهاد، كان يقول: إني لأغلق علي بابي، فما يجاوزه همي. وقال: أكمل ما يكون الإنسان عقلا وذهنا عند الأربعين. وعنه قال: لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يجالس غيره. قال أيوب بن المتوكل: كان الخليل إذا أفاد إنسانا شيئا، لم يره بأنه أفاده، وإن استفاد من أحد شيئا، أراه بأنه استفاد منه.[معجم الأدباء للحموي: 97/7]

تتلخص الآراء في مؤلف العين فيما يأتي:1- أن المؤلف هو الخليل. 2- واضع الفكرة هو الخليل والمنفذ هو الليث.

3- المؤلف هو الليث. 4- واضع الفكرة، ومؤلف قسم منه هو الخليل. أما الذي أكمله فهو الليث.

ويكفي لدحض شبهة التشكيك في صحة نسبة العين للخليل أن نورد أسانيده إلى الخليل، فعندنا ثلاث سلاسل لإسناد الكتاب وهي:

أ- السلسلة الموجودة في النسخة التي طبعت وهي: قال أبو معاذ عبد الله بن عائد: حدثني الليث بن المظفر عن ابن نصر بن سيار عن الخليل بجميع ما في هذا الكتاب ...**ب**- سلسلة ذكرها ابن فارس في أول المقاييس، وهي عن علي بن إبراهيم القطان عن أبي العباس أحمد بن إبراهيم المعداني ... عن الليث عن الخليل. **جـ**- سلسلة ذكرها السيوطي في "المزهر" وهي عن أبي علي الغساني، عن أبي عمر بن عبد البر، عن عبد الوارث بن سفيان، عن القاضي منذر بن سعيد، عن أبي العباس أحمد بن محمد بن ولّاد النحوي، عن أبيه، عن أبي الحسن علي بن مهدي، عن أبي معاذ عبد الجبار بن يزيد، عن الليث، عن الخليل. وقراءة كتاب العين على ابن ولاد ثابتة في عدة مراجع. بل إن الروايات نفسها تتحدث عن وجود نسخة أخرى من "العين" عند أبي جعفر النحاس "وهو معاصر لابن ولاد" كان يقرئها لمن يحب من تلاميذه. وتمضي الروايات قائلة: إن المنذر بن سعيد حينما ذهب إلى مصر قصد أبا جعفر النحاس أولًا، ولكن نشأ بينهما نوع من الجفوة نتيجة تصحيح منذر بن سعيد خطأ وقع فيه النحاس. ولذلك أبى النحاس أن يقرئ منذر بن سعيد معجم "العين" فانتقل ابن سعيد من مجلس النحاس إلى مجلس ابن ولاد وقرأ عليه ونسخ من نسخته كتاب "العين".

وننتهي من هذا إلى أن معجم "العين" من عمل الخليل – جزئيًّا على الأقل – وإن كان الأرجح أنه كان من عمله. قال الدكتور إبراهيم أنيس: "وفي رأينا أن مثل هذا الترتيب الصوتي الموسيقي لا يمكن أن يقوم به إلّا الخليل الذي عرف أنه موسيقي، وعني عناية خاصة بالأصوات. والدليل اختراعه علم العروض وتأليفه كتبًا في الموسيقى. فمثله يمكن أن يُعنى بهذا الترتيب المخرجي".

وقد طبع الجزء الأول من العين عام 1967م، وقام بتحقيقه الدكتور عبد الله درويش على ثلاث نسخ مخطوطة. ولكنه توقف عن تحقيقه فتقدم لهذه المهمة الدكتوران إبراهيم السامرائي، ومهدى المخزومي. وقد نشرا الجزء الأول عام 1980م ثم تتابع نشر بقية الأجزاء حتى اكتمل المعجم في ثمانية أجزاء، ظهر آخرها عام 1985م.

أمّا ترتيب الخليل للعين فقد أخذ الصورة الآتية:

1- رتّب كلمات معجمه على الحروف ترتيبًا مخرجيًّا (صوتيًا). وقد وجد أعمق الحروف هي حروف الحلق فبدأ بها. ولم يكتف بذلك، بل رتّب حروف الحلق فيما بينهما، فوجدها ذات مخارج ثلاثة هي: الهمزة والهاء – ثم العين والحاء – ثم الغين والخاء – وقد كان من المتوقع إذن أن يبدأ الخليل معجمه بحرف الهمزة وأن يسمي كتابه بـ "الهمزة"، ولكنه عدل عن ذلك وبدأ بحرف العين وسمى كتابه "العين"، والسر في ذلك أن الخليل قد وجد – بحسه الصوتي – أن الهمزة صوت معرض للتغييرات مثل التسهيل أو الحذف، فلم يشأ أن يبدأ بها، ووجد أن الهاء صوت مهموس خفي فلم يشأ أيضًا أن يبدأ بها. وانتقل إلى الحيز الثاني من حروف الحلق فوجد فيه العين والحاء فبدأ بالعين لأنها "أنصع" أي: أوضح؛ لأنها مجهورة. **2- كان يلتزم تجريد الكلمة من زوائدها**، ثم يضعها في مكانها بعد ذلك، ومعنى ذلك أنه بنى معجمه على "الجذور" أو "الأصول"، وأهمل حروف الزيادة. وقد ظل هذا دأب معظم معاجمنا حتى الآن.

3- رتّب الأصوات على الوجه الآتي: [ع ح هـ خ غ / ق ك / ج ش ض / ص س ز / ط د ت / ظ ذ ث / ر ل ن/ ف ب م / و ا ي]

4- خصّص لكل حرف كتابًا أسماه باسمه. فالمعجم عبارة عن كتب بعدد حروف الهجاء هي كتاب العين – كتاب الحاء – كتاب الهاء ... وهكذا. **5- وفي كل كتاب كان يضع الكلمات** التي تشتمل على الحرف الذي يحمل الكتاب اسمه أيًّا كان موضع هذا الحرف في الأول أو الوسط أو الآخر.**6- حين يتناول كلمة ما كان يقلبها على جميع أوجهها الممكنة (التقليبات الممكنة)**. وكان في كثير من الأحيان يلتزم ببيان الأوجه المستعملة، والأوجه المهملة. فكلمة مثل "قد" تقرأ بوجهين إما مع البدء بالقاف أو مع البدء بالدال [2 عاملي]. وكلمة مثل "عند" إذا قلبت على أوجهها تنتج ست صور هي: ع ن د – ع د ن – ن ع د – ن د ع – د ع ن – د ن ع. [3 عاملي]

وتقليبات الرباعي الممكنة كما في (دحرج) هي 24 تقليبة. [4 عاملي]، وتقليبات الخماسي الممكنة هي 120 تقليبة[5 عاملي]. [5عاملي = 5 ضرب 4عا =5ضرب 4ضرب3 ضرب2=120].

وقد طبق الخليل التقليبات مع جميع كلمات الثنائي والثلاثي وكان ينصّ على المستعمل من هذه الصور والمهمل. ولكن مع الرباعي والخماسي. وجد أن العملية طويلة والاحتمالات كثيرة والصور المستعملة فعلًا – بالنسبة للمهملة – قليلة جدًّا، ولذا اكتفى بالتقليبات العملية فقط لا الممكنة عقلًا.

7- نتيجة لنظام التقليبات فإن كل كتاب لا يشتمل على كلمات فيها حروف سابقة: فكتاب "الحاء" لا يشتمل على أي كلمة فيها "عين"، لأن جميع الكلمات التي تشتمل على حرف العين قد سبقت في كتاب العين، وكتاب الهاء لا يشتمل على أي كلمات فيها عين أو حاء لأنها سبقت.... وهكذا. ومعنى هذا أن الكتب الأولى أكبر من الكتب المتأخرة. وكلما تأخرنا قلت كلمات الكتاب. ولهذا فإن كتاب العين يُعد أكبر كتب المعجم وحين نصل إلى كتاب الميم نجده لا يتجاوز بضع عشرة صفحة، لأنه لم يبق لهذا الحرف ليوفق معه إلا أحرف العلة الثلاثة. أما كتب الحروف المعتلة وهو آخر الكتب فلم يتجاوز بضع صفحات.

8- خضع تبويب الكلمات لنظام الكمية. فمثلًا في باب العين نجد الكلمات مسجلة بحسب التقسيم الآتي:

الثنائي – الثلاثي الصحيح – الثلاثي المعتلّ – اللفيف – الرباعي – الخماسي. أمّا **الثنائي** فقد قصد به الخليل ما وجد فيه حرفان من الحروف الصحيحة، ولو مع تكرار أحدهما في أي موضع طبقًا لنظرية العناصر، فيشمل مثل "قد" و"قدَّ" و"قدقد". كما يشمل مثل "ددن" و"قلق" و"جلل". ولذلك يقول ابن القطاع: الثنائي ما كان على حرفين من حروف السلامة، ولا تبال أن تتكرر فاؤه أو عينه". وواضح أن اصطلاح الخليل هذا ناتج عن نظام التقليبات الذي اتبعه، لأن مثل "ددن" و"قلق" و"جلل" ستتماثل في صورة من صور تقليباتها وتشترك في موضع التكرير فيها. أما سائر اللغويين ممن لم يقلبوا، فيعتبرون مثل "قدّ" و"جلل" من مضعف الثلاثي، ويعتبرون مثل "قدقد" من مضعّف الرباعي، ويعتبرون مثل "قلق" من السالم().

وأمّا الثلاثي الصحيح فهو عنده – كما عند غيره – ما اجتمع فيه ثلاثة حروف صحيحة. **وأما الثلاثي المعتلّ** فما وجد فيه حرفان صحيحان، وحرف علة واحد، سواء جاء أولًا "مثال" أو وسطًا "أجوف" أو آخرًا "ناقص". **وأمّا اللفيف** فقد عني به ما وجد فيه حرفا علّة سواء كانا مفروقين مثل "وعى"، أو مقرونين مثل "كوى".

أما طريقة الكشف في العين فتقضي أولًا **بتجريد الكلمة** من زوائدها لتحديد الجذر، ثم **يبحث عن أعمق أصواتها** لتحديد الكتاب. فإن كان من بينها "ع" أيًّا كان موضعها؛ فإن مكان الكلمة كتاب العين، وإن لم يكن بها "ع" ووجد بها "ح" فمكانها كتاب الحاء ... . ولهذا لا بد أن يعرف الباحث الترتيب المخرجي(الصوتي) للحروف، ويفتش عن أقصى حرف في المخرج. فإذا حددنا الكتاب الذي سنبحث فيه عن الكلمة نظرنا إلى ناحية الكم(عدد حروفها)، وحددنا نوع الكلمة أهي من الثنائي أم الثلاثي الصحيح أم الثلاثي المعتلّ ... وبذا نضيق دائرة البحث. وبعد ذلك نحدد مادة الكلمة عن طريق إعادة ترتيبها صوتيًّا. وأخيرًا نقوم بالتقليبات الممكنة، وسنجد جذر الكلمة المطلوبة ضمن هذه التقليبات.

مدرسة القافية: هي مدرسة تعتمد الحرف الأخير بابًا والأول فصلًا على حسب حروف الهجاء، وعليه تبلغ الأبواب ثمانية وعشرين بابًا، وكل باب فيه ثمانية وعشرون فصلا بحسب حروف الهجاء، وسميت بمدرسة القافية لأن الواضعين لها (المدرسة)[البندنيجي أبو بشر(ت: 284هـ) في كتابه التقفية، والفارابي أبو إبراهيم إسحاق(ت: 350هـ) في معجمه ديوان العرب ثم الجوهري] نظروا إلى الحرف الأخير في ترتيب الأبواب والفصول واعتمدوه؛ ذلك أنه أقل تعرضا للتغيير من الأول والوسط، وإنما فعلوا ذلك ليتلافوا صعوبة المدرسة الصوتية(مدرسة الخليل).

1-1-2-معجم الصحاح للجوهري(ت: 393هـ):

يعدّ الجوهري تابعًا لطريقة الفارابي في معجمه "ديوان العرب"، ولكنه أدخل تعديلًا جوهريًّا عليها؛ إذا طرح الخطوات الكثيرة التي سارت عليها معاجم الأبنية، واختار من منهج الفارابي المعقد فكرة الباب والفصل وحدها وأدار عليها معجمه.

وقد سار كتاب "الصحاح" في الآفاق وبلغ في الشهرة مبلغًا عظيمًا، يقول القفطي: إنه لما دخلت نسخة منه مصر نظرها العلماء فاستجودوا قرب مأخذها. ويقول: إن أهل مصر يروون كتاب "الصحاح" عن ابن القطاع الصقلي متصل الطريق إلى الجوهري، ولا يرويه أحد من أهل خراسان. وإن يكن الصحاح قد نال من الشهرة ما نال فإن للفارابي في معجمه ديوان العرب كبير فضلٍ عليه؛ لأنه سابق وممهد له.

الجوهري(ت: 393هـ): إسماعيل بن حماد، أبو نصر الجوهري مصنف "الصحاح". كان من " فاراب " أحد بلاد الترك، وكان يضرب به المثل في حفظ اللغة، وحسن الكتابة، ويذكر خطه مع خط ابن مقلة، ومهلهل والبريدي. كان يؤثر الغربة على الوطن، دخل بلاد ربيعة، ومضر في طلب الأدب، ولما قضى وطره من قطع الآفاق والأخذ عن علماء الشام والعراق عاود خراسان، فأنزله أبو الحسين الكاتب عنده، وبالغ في إكرام مثواه جهده، فسكن نيسابور يدرس ويصنف اللغة، ويعلم الكتابة، وينسخ الختم. وقيل: إنه اختلط في آخر عمره. قال جمال الدين علي بن يوسف القفطي: مات الجوهري مترديا من سطح داره بنيسابور، في شهور سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة: قال: وقيل: مات في حدود الأربعمائة.

وقيل: إنه تسودن وعمل له دُفَّين، وشدهما كالجناحين يعني، وقال: أريد أن أطير، وقفز، فأهلك نفسه رحمه الله. وكان من أذكياء العالم. أخذ العربية عن أبي سعيد السيرافي، وأبي علي الفارسي، وأخذ اللغة عن خاله أبي إبراهيم إسحاق الفارابي. وقيل: إن " الصحاح " كان قد بقي عليه منها قطعة مسودة، فبيضها بعد موته تلميذه إبراهيم بن صالح الوراق، فغلط في أماكن، حتى إنه قال في " سقر " هو بالألف واللام، وهذا يدل على أنه لم يقرأ القرآن، وقال: "الجراضل الجبل"، فصيرها كلمة واحدة، بضاد معجمة، وإنما هي " الجرّ" بالتثقيل، "أصل الجبل". [تاريخ الإسلام: 727/8]

ألف الجوهري معجمه الصحاح وهو يضع في حسبانه تحقيق أمرين اثنين: أحدهما: **تيسير البحث عن ألفاظ اللغة ومعانيها**، والآخر: **التزام الصحيح منها**.

وأمَّا منهجه في التأليف فيمكن توضيحه في الأمور التالية: **1**-اتبع نظام القافية، فجعل الحرف الأخير بابًا، والحرف الأول فصلًا، وترك نظام التقليبات، واتبع نظام الأبجدية العادية(أ ب ت ث ج ح خ....). **2**-قسم كل باب إلى فصول حسب أوائل الكلمات، فمثلا باب الهمزة يبدؤه بفصل الهمزة ثم فصل الباء ثم بما يليه من الحروف، ثم باب الباء فيبدؤه بفصل الهمزة ثم بما يليه وهكذا. **نظريًا** لكل باب ثمانية وعشرون فصلًا، لكن ذلك مرتبط بوجود الألفاظ المستعملة أو عدم وجودها، لذلك فإنّ بعض الأبواب اكتمل فيها هذا العدد من الفصول، وأن بعضها لم يكتمل. **وقد رتّب** كل فصل بحسب ما يليه من الحروف، أي أنه راعى الحروف المتوسطة بين الحرف الأخير الذي جعله بابًا، وبين الأول الذي جعله فصلًا، فنظر إلى الحرف الثاني إذا كانت الكلمة ثلاثية، وإلى الثاني والثالث إذا كانت الكلمة رباعية، وإلى الثاني والثالث والرابع إذا كانت الكلمة خماسية. **3**-اقتصر على جمع الألفاظ الصحيحة. **4**-عُني بالضبط عناية دقيقة دفعا للتحريف والتصحيف. **5**-وضع قواعد خاصة في ضبط الأسماء والأفعال. **6**-أكثرَ من القواعد النحوية والصرفية منبهًا على الشاذ منها. **7**-أشار إلى اللغات المختلفة في اللفظ الواحد. **8**-اعتنى بالتنبيه على المعرّب من الألفاظ. **9**-أرجع الألفاظ إلى أصولها، وذلك بتجريدها من الزوائد، وردّ المقلوب إلى أصله، وإذا كانت جمعا ردت إلى إلى مفردها، وهذا ليس خاصا بالصحاح وإنما هو في جميع المعاجم. فمثلا الفعل (كَتَبَ) نجده في باب الباء فصل الكاف، وهو بعد (كأب) و(كبَّ) مثلا لأن الهمزة والباء مقدمة على التاء، وهو (كتب) مقدم على (كذب) و(كرب) وهكذا. والجوهري قدم الواو على الهاء في ترتيبه. وأما الكلمات الزائدة على ثلاثة أحرف فيبحث عنها في أبواب الثلاثي أنفسها مع مراعاة الحرف الثاني وما يليه، فالكلمة (كعثب) يبحث عنها في باب (كعب) وهكذا.

مميزات معجم الصحاح: يمكن إجمال مميزاته في ما يلي: **1**-اتباع طريقة القافية، وهي جديدة مبتكرة ويسيرة. **2**-طريقة شرحه للألفاظ تفيد الباحث في بعض النظريات المتصلة بفقه اللغة، مثل نظرية دوران المادة اللغوية حول معنى معين، حيث يبين في كثير من الأحيان سبب دلالة اللفظ على معنى معين يرجع إليه الكثير من الألفاظ. وكذلك المشترك والمتضاد وغيرهما يمكن استخراجه بيسر من معجم الصحاح بسبب طريقته في شرح الألفاظ، وتنبيهه على ذلك أحيانًا. **3**-اعتماده مصادر موثوق بها إما مشافهة أو من طريق المؤلفات. **4**-استشهاده بالقرآن الكريم والحديث الشريف، وما

روي من فصيح كلام العرب شعرا ونثرا. 5-نسبة الأقوال إلى أصحابها في كثير من الأحيان. **6**-احتواؤه على كثير من القواعد النحوية والصرفية. **7**-اهتمامه بأسماء القبائل والأعلام العربية.

هذا وسجل الدارسون بعض المآخذ على معجم الصحاح، لكنها لا تعدو هنات لا يسلم منها معجم في مثل حجمه.

2-كتب اللغة:

2-1- الخصائص لابن جني(ت: 391هـ)

الخصائص:

ابن جنيّ(ت: 392هـ): أبو الفتح عثمان بن جنيّ النحويّ، كان من حذّاق أهل الأدب، وأعلمهم بعلم النحو والتصريف. صنف في النحو والتصريف كتباً أبدع فيها؛ كالخصائص، والمنصف، وسر الصناعة، وصنف كتاباً في شرح القوافي، وفي العروض، وفي المذكر والمؤنث، إلى غير ذلك. ولم يكن في شيء من علومه أكمل منه في التصريف، فإنه لم يصنف أحد في التصريف، ولا تكلم فيه أحسن ولا أدق كلاماً منه. وكان أبوه جنيّ مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي، وكان يقول الشعر ويجيده، فمنه: فإن أصبح بلا نسبٍ فعلمي في الورى نسبي على أني أءول إلى قرومٍ سادة نجبِ أولاك دعا النبيّ لهم كفى شرفاً دعاء نبي.

ومن شعره أيضاً في العتب على صديق له: صدودك عني ولا ذنب لي يدل على نية فاسده وقد وحياتك مما بكيت خشيت على عيني الواحده ولولا مخافة ألّا أراك لما كان في تركها فائده.

وإنما قال: "خشيت على عيني الواحدة"، لأنه كان أعور.

وأخذ عن أبي علي الفارسي(ت: 377هـ)؛ وصحبه أربعين سنة، وكان سبب صحبته إياه أن أبا علي الفارسيّ كان قد سافر إلى الموصل، فدخل إلى الجامع، فوجد أبا الفتح عثمان بن جني يقرأ النحو وهو شاب، وكان بين يديه متعلم وهو يكلمه في قلب الواو ألفاً، نحو "قام" و"قال"، فاعترض عليه أبو علي، فوجده مقصراً، فقال له أبو علي: زبت قبل أن تحصرم، ثم قام أبو علي ولم يعرفه ابن جني، فسأل عنه، فقيل له: هذا أبو علي الفارسي النحوي، فأخذ في طلبه، فوجده ينزل إلى السميرية، يقصد بغداد، فنزل معه في الحال، ولزمه وصاحبه من حينئذ إلى أن مات أبو علي وخلفه ابن جني، ودرّس النحو ببغداد بعده، وأخذ عنه، وكان تبحر ابن جني في علم التصريف؛ لأن السبب في صحبته أبا عليّ، وتغربه عن وطنه، ومفارقة أهله مسألة تصريفية، فحمله ذلك على التبحر والتدقيق فيه. وأخذ عنه أبو القاسم الثمانيني وأبو أحمد عبد السلام البصري، وأبو الحسن علي بن عبد الله السمسي، وغيرهم. وتوفي ابن جني يوم الجمعة لليلتين بقيتا من صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة في خلافة القادر بالله تعالى.[نزهة الأدباء: 245-246]

ألف أبو الفتح عثمان بن جني كتاب **الخصائص**، وقدمه إلى بهاء الدولة الذي اعتلى ملك بغداد في عهد الخلافة العباسية 379 إلى 403هـ، يقول في تقديم كتابه: "هذا - أطال الله بقاء مولانا الملك السيد المنصور المؤيد بهاء الدولة وضياء الملة، وغياث الأمة، وأدام ملكه ونصره، وسلطانه ومجده، وتأييده وسموه، وكبت شانئه وعدوه - كتاب لم أزل

على فارط الحال، وتقادم الوقت ملاحظًا له، عاكف الفكر عليه، منجذب الرأي والرواة إليه ... وفي اعتقادي أنه من أشرف ما صنف في علم العرب ...ولقد ألف هذا الكتاب بعد وفاة أستاذه أبي علي الفارسي(377هـ). وكان الهدف من تأليفه هو معرفة أسرار اللغة العربية وخصائصها ومزاياها، والوقوف على العلل الحقيقية لها.

يقول ابن جني في المقدمة: "وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة: من خصائص الحكمة، ونيطت به من علائق الإتقان والصنعة ... وذلك أنا لم نر أحدًا من علماء البلدين تعرض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه. **وكتاب الخصائص** يعد من أهم المراجع في فقه اللغة؛ بما حواه من بحوث ينهل من معينها كل باحث في فقه اللغة، إلى جانب اشتماله على بحوث ومسائل نحوية وصرفية قيّمة. وهو كما واضح من عنوانه يبحث في خصائص اللغة العربية، وإن اشتمل على مباحث تتصل باللغة بصفة عامة، مثل البحث في الفرق بين الكلام والقول، والبحث في أصل اللغة أإلهام هي أم اصطلاح....أمّا بقية الأبحاث فتختص باللغة العربية: فلسفتها ومشكلاتها.

وقد نص ابن جنّيّ على أنّ الهدف من تأليف كتابه الخصائص ليس هو البحث في المشكلات اللغوية الجزئية، ولكنه البحث في مشكلاتها الكلية؛ أي في فلسفتها. يقول: إذ ليس غرضنا فيه الرفع والنصب والجر والجزم؛ لأنّ هذا الأمر قد فُرِغ في أكثر الكتب المصنفة فيه منه، وإنَّما هذا الكتاب مبنيّ على إثارة معادن المعاني، وتقرير حال الأوضاع والمبادئ، وكيف سرت أحكامها في لأحناء والحواشي...الخصائص: 32/1]

وابن جني وإن بحث في قضايا نحوية وصرفية جزئية إلا أنه لا يبحث فيها في حد ذاتها بل يتخذها منطلقا أو وسيلة للوصول أو الولوج إلى قضايا (مشكلات) لغوية أكبر. ولا أدل على ذلك من بحثه في الفرق بين القول والكلام؛ الذي يراه لا يقف عند حد التصريف والاشتقاق ولكنه يتجاوزه إلى ما هو أبعد منه، وهو الفرق بين ما ينطق به اللسان أحيانا فيسمى قولا، وما ينطق به أحيانا أخرى أو يكتبه القلم فيسمى كلاما.

ومن البحوث التي ذكرها ابن جني في الخصائص في فقه اللغة "**القول في نشأة اللغة أإلهام هي أم اصطلاح**" و"**القول على الاطراد والشذوذ**" و"**تعارض من السماع والقياس**" و"**القول على إجماع أهل العربية متى يكون حجة**" و"**ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب**" و"**تداخل اللغات**" و"**باب في امتناع العرب من الكلام بما يجوز في القياس**" و"**باب في هذه اللغة: أفي وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط**" وغير ذلك من البحوث؛ التي لا غنى عنها لباحث لغويّ.

ففي فصل "**القول في نشأة اللغة أإلهام هي أم اصطلاح**" ساق كلاما طويلًا، وخلص إلى نظريات ثلاث هي:

1- الأولى: النظرية التوقيفية. **2**- الثانية: النظرية الاصطلاحية. **3**- الثالثة: نظرية المحاكاة.

فابن جني وإن كان اتجه إلى القول بالاصطلاح، أولا، وتعاطف مع الرأي القائل بالتوقيف أخيرًا نجده يصرح برأيه وأنه يرى أن اللغة إنما نشأت عن **طريق المحاكاة**، و**نظرية المحاكاة هذه غير نظرية الاصطلاح**، وإن كان بعض العلماء المحدثين قد ضمهما في نظرية واحدة هي نظرية الاصطلاح والمواضعة. و**نظرية المحاكاة** هذه هي أقرب نظريات نشأة اللغة الإنسانية الأولى إلى الصحة وأكثرها تمشيًا مع طبيعة الأمور وتطورها، وقد قال بهذه النظرية كثير من علماء اللغة

المحدثين على رأسهم "وتني". فابن جني الذي عاش في القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي قد نادى بما ينادي به علماء الغرب المحدثون مثل "جسبرس" و"وتني"، وأن عقليته الفذة قد سبقت عصره وتخطته، وخلف لنا دراسات قيمة هي المنهل العذب الذي ننهل منه وينهل منه معنا علماء الغرب.

ولم تكن عقلية ابن جني عقلية حافظة ناقلة فحسب بل كانت عقلية علمية جدلية، لا تسلم بالأمر إلا بعد اقتناع وإن كان صادرا عن كبار العلماء.

فعالم اللغة عنده هو من يناقش القضايا اللغوية الجوهرية حتى يصل إلى حدّ الوضوح والإقناع، لأن هذا أساس كل مبحث أدبي فلسفي، ولهذا صرح في باب العلل أن العلل اللغوية أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين، فأهل الشريعة تنازعوا في العلل كثيرًا، ولم يقطعوا فيها بيقين....وعالم اللغة عليه أن ينعم (يديم) الفكر فيها، ويكاس(يتفطن ويحتاط) في الإجابة عنها.

ومن الأبواب التي تعرض لها ابن جني وتختص بدارسة اللهجات باب "اختلاف اللغات وكلها حجة"، فلقد عقد ابن جني بابًا في الخصائص سماه "**اختلاف اللغات وكلها حجة**" يقول فيه: اعلم أن سعة القياس تبيح لهم ذلك، ولا تحظره عليهم، ألا ترى أن لغة التميميين في ترك إعمال "**ما**" يقبلها القياس، ولغة الحجازيين في إعمالها كذلك؛ لأن لكل واحد من القومين ضربًا من القياس، يؤخذ به، ويخلد إلى مثله، وليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها؛ لأنها ليست أحق بذلك من رسيلتها. لكن غاية مالك في ذلك أن تتخير إحداهما، فتقويها على أختها، وتعتقد أن أقوى القياسين أبل لها، وأشد أنسابها فأما رد إحدهما بالأخرى فلا. أولا ترى إلى قول النبي – صلى الله عليه وسلم: "نزل القرآن بسبع لغات كلها كاف شاف"، هذا حكم اللغتين إذا كانتا في الاستعمال والقياس متدانيتين متراسلتين أو كالمتراسلتين. فأمّا أن تقلّ إحداهما جدًّا، وتكثر الآخر جدًّا، فإنك تأخذ بأوسعها رواية وأقواهما قياسًا، ألا تراك لا تقول: مررت بك ولا المال لك قياسًا على قول قضاعة: المال له ومررت به، ولا تقول أكرمتكش ولا أكرمتكس قياسًا على لغة من قال: مررت بكش وعجبت منكس. فلقد أشار ابن جني في هذا الفصل إلى بعض الصفات المشهورة عن لهجات القبائل المختلفة، وبيّن أن بعض تلك الصفات أشهر من بعضها الآخر، وأكثر شيوعًا في اللغة، ومع ذلك فجميع هذه اللهجات مما يحتج به، ولا يوصف الإنسان بالخطأ في اللغة إن استعمل القليلة الاستعمال وإنما يكون مخطئًا لأجود اللغتين، وهذا في غير الشعر أو السجع، أمّا في الشعر أو السجع فإذا اضطر الشاعر أو الساجع إلى استعمال هذه اللهجات فلا ضير عليه حينئذ ولا لوم، ويقبل منه ذلك، **وابن جني في هذا الفصل** يفرق بين نوعين مختلفين من اللهجات.

النوع الأول: وهو أن تكون العلاقة بين اللغة الفصحى القرشية، واللهجة المستعملة متقاربة وحينئذ لا يجوز لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها لأنها ليست أحق بذلك من رسيلتها، لكن غاية ما لك في ذلك أن تتخير إحداهما، فتقويها على أختها، وتعتقد أن أقوى القاسين أقبل لها، وأشد أنسابها. فأما رد إحداهما بالأخرى فلا، أو لا ترى إلى قول النبي –صلى الله عليه وسلم: "نزل القرآن بسبع لغات كلها كافٍ شافٍ" هذا حكم اللغتين إذا كانتا في الاستعمال والقياس متدانيتين متراسلتين أو كالمتراسلتين.

النوع الثاني: وهو أن تكون العلاقة بين العربية الفصحى واللهجة المستعملة متباينة، وقد بيّنه ابن جني بقوله: "فأما أن تقل إحداهما جدًّا وتكثر الأخرى فإنك تأخذ بأوسعها رواية، وأقواها قياسًا". وهو بهذا يرفض اعتبار بعض ظواهر اللهجات من النوع الفصيح؛ الذي يمكن أن يقاس عليه، وقد بنى حكمه برداءة الظاهر، أو رقيها على أساس كثرة الاستعمال وقلته. **وابن جني** يمنع القياس على الظواهر الرديئة في لهجات العرب، ولا يمنع اللهجات نفسها، بل يعترف بقياسها وقواعدها ويرى أن إحداها ليست بأولى من الأخرى، ولا أحقّ. فاللهجات جميعها عنده تستوي في ميزان الفصاحة، عندما تجرد من الظواهر الرديئة، التي تنحرف باللهجة عن سنن الفصاحة، تباعد بين اللهجة واللغة الفصحى.

وعقد ابن جني فصلًا آخر عنون له بـ"**باب في العربي الفصيح ينتقل لسانه**" فيقرّ ابن جني أن الفصيح قد ينتقل لسانه إلى لغة أخرى فصيحة، فيعدّ فصيحًا في اللغتين، ويؤخذ بلغته في كلتيهما، فأما إن كانت اللغة التي انتقل لسانه إليها فاسدة لم يؤخذ بها، ويؤخذ بالأولى، حتى كأنه لم يزل من أهلها، ويوضع ذلك بما يحكي من أن أبا عمرو استضعف فصاحة أبي خيرة لما سأله فقال: كيف أبا خيرة، لان جلدك، فليس لأحد أن يقول: كما فسدت لغته في هذا ينبغي أن أتوقف عنها في غيره، "لما حذرناه" قبل ووصفنا فهذا هو القياس وعليه يجب العمل. ولقد عرض ابن جني لدراسة اللهجات في أبواب أخرى نذكر منها:**1**- باب في الفصيح يجتمع في كلامه لغتان فصاعدا. **2**- باب فيما يرد عن العربي مخالفًا لما عليه الجمهور. **3**- باب في العربي يسمع لغة غيره أيراعها ويعتمدها، أم يلغيها ويطرح حكمها.

وفي الأخير نخلص إلى أن كتاب الخصائص يقف بموضوعاته اللغوية العميقة، وأسلوبه المنطقي في الجدل، وثقة صاحبه في الرواية والحفظ شامخا بين كتب اللغة العربية، بل لا جفاء للحقيقة إن قلنا إنه يضارع النظريات اللغوية الجادة والعميقة؛ التي ظهرت حديثا وما تزال تظهر في الغرب. فعلى المهتمين اليوم بقضايا اللغة النظر بتأن في موضوعات الخصائص جنبا إلى جنب مع ما يستحدث من النظريات اللغوية الغربية.

2-2-الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس(ت: 395هـ)

ابن فارس(ت: 395هـ): أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب، أبو الحسين الرازي، وقيل: القزويني، المعروف بالرازي المالكي اللغوي، نزيل همذان وصاحب "المجمل في اللغة". ولد بقزوين، ونشأ بهمذان، وكان أكثر مقامه بالري.

وكان كاملا في الأدب، فقيها مناظرا، مالكيًا. وكان يناظر في الكلام، وينصر مذهب أهل السنة. وطريقته في النحو طريقة الكوفيين، وكان بالجبل نظير ابن لنكك بالعراق، جمع إتقان العلماء، إلى ظرف الكتاب والشعراء. وله مصنفات بديعة ورسائل مفيدة، وأشعار جيدة، وتلامذة فيهم كثرة، وكان شديد التعصب لآل العميد، وكان الصاحب إسماعيل بن عباد يكرهه لذلك، وكان قد ألف "كتاب الحجر" وسيره إلى الصاحب، فقال: ردوا "الحجر" من حيث جاء، وأمر له بجائزة قليلة. وقال بعضهم: كان إذا ذكرت اللغة فهو صاحب مجملها، لا بل صاحبها المجمل لها. وكان يحث الفقهاء دائما على معرفة اللغة، ويلقي عليهم ويخجلهم ليتعلموا اللغة، ويقول: من قصر علمه عن اللغة وغولط غلط.

وقال سعد بن علي الزنجاني: كان أبو الحسين بن فارس من أئمة اللغة محتجا به في جميع الجهات غير منازع، رحل إلى أبي الحسن علي بن إبراهيم القطان الأوحد في العلوم، ورحل إلى زنجان إلى أبي بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب، ورحل إلى ميانج إلى أحمد بن طاهر بن النجم، وكان يقول: ما رأيت مثله. قال سعد: وحمل ابن فارس إلى الري ليقرأ عليه مجد الدولة ابن فخر الدولة، وحصل بها مالا، وبرع ذلك الأمير في الأدب. قال: وكان ابن فارس من الأجواد، حتى إنه يهب ثيابه وفرش بيته. وكان من رؤساء أهل السنة المجردين على مذهب أهل الحديث. توفي بالري في صفر، سنة خمس وتسعين. ومن شعر ابن فارس: مرت بنا هيفاء مجدولة تركية تنمى لتركي ترنو بطرف فاتر فاتن أضعف من حجة نحوي.[تاريخ الإسلام: 746/8]

الصاحبي في فقه اللغة: هو كتاب فِي فقه اللغةِ، وقد سماه بالصاحبي نسبة إلى الصاحب بن عباد، وكان ابن فارس قدم الكتاب إليه وأودعه خزانته. أما مضمون الكتاب فيدور حول اللغة العربية، وأوليتها ومنشئها، ثم يبحث في أساليب العرب في تخاطبهم، وفي الحقيقة والمجاز. وقد بدأ الكتاب بباب قرر فيه أن اللغة توقيف وليست اصطلاحا، ثم ذهب في الأبواب التالية يدرس الظواهر اللغوية دراسة فلسفية، فيبدأ بتفضيل العربية على ما سواها من اللغات، بعد ذلك مفصلا، مقارنًا بين اللغات مستشهدًا بالقرآن الكريم وبالشعر العربي، وبصور من كلام العرب، وينتقل بعد ذلك إلى دراسة المفردات اللغوية من حيث معانيها المختلفة وطرق استعمالها، وائتلافها واختلافها، فيفرق بين الاسمي منها والحرفي، ويبحث في أصول الأسماء، وما جرى مجراها من الصفات، كما يدرس الحروف المفردة من حيث المعاني ووجوه الاستعمال، والأفعال وأبنيتها إلى ما هناك من أبواب أخرى. وللكتاب قيمة من حيث إنه أضاف إلى مكتبتنا العربية مصدرًا هامًّا من المصادر اللغوية، ولا يستغني عنه عام أو خاص، عالم أو متعلم، وكان قد نشر لأول مرة في القاهرة سنة 1328هـ.

مباحث الصاحبي: لقد قسم ابن فارس في كتابه "الصاحبي" علم العربية إلى قسمين:

1- قسم فرعي: وهو معرفة أسماء الأشياء وصفاتها كجمل وفرس وطويل وقصير، وبعض الناس شغل بالفرع فلا يعرف غيره.

2- قسم أصلي: ومن مباحثه البحث في أولية اللغة ومنشئها، وتشمل مباحث علم النحو والصرف والبلاغة والتجويد وغيرها مما يساعد على فهم كتاب الله وسنة رسوله.

يقول ابن فارس في مقدمة كتابه: "إن لعلم العرب أصلًا وفرعًا: أمّا الفرع فمعرفة الأسماء والصفات كقولنا "رجل" و"فرس" و"طويل" و"قصير" وهذا هو الذي يبدأ به عند التعليم. وأما الأصل فالقول على موضوع اللغة وأوليتها ومنشئها، ثم على رسوم العرب في مخاطباتها، وما لها من الافتنان تحقيقًا ومجازًا. والناس في ذلك رجلان: رجل شغل بالفرع فلا يعرف غيره، وآخر جمع الأمرين معًا، وهذه هي الرتبة العليا؛ لأن بها يعلم خطاب القرآن والسنة، وعليها يعول أهل النظر والفتيا؛ وذلك أن طالب العلم العلوي يكتفي من أسماء "الطويل" باسم الطويل، ولا يضيره أن لا يعرف "الأشق" و"الأمق"، وإن كان في علم ذلك زيادة فضل.

ولو أنه لم يعلم توسع العرب في مخاطباتها لعيي بكثير من علم محكم الكتاب والسنة، لا تسمع قول الله جل ثناؤه ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾[الأنعام: 52] إلى آخر الآية؟ فسر هذه الآية في نطقها لا يكون بمعرفة غريب اللغة والوحشي من الكلام وإنما معرفته بغير ذلك مما لعل كتابنا هذا يأتي على أكثر بعون الله تعالى.

والفرق بين معرفة الفروع ومعرفة الأصول أن متوسمًا بالأدب لو سئل عن "الجزم" و"التسويد" في علاج النوق فتوقف أو عيي به أو لم يعرفه لم ينقصه ذلك عند أهل المعرفة نقصا شائعًا؛ لأن كلام العرب أكثر من أن يحصى، ولو قيل له: هل تتكلم العرب في النفي بما تتكلم به في الإثبات، ثم لم يعلمه لنقصه ذلك في شريعة الأدب عند أهل الأدب؛ لأن ذلك يردي دينه أو يجره لمأثم. كما أن متوسمًا بالنحو لو سئل عن قول القائل: لهنك من عبسية لوسيمة ... على هنوات كاذب من يقولها فتوقف أو فكر أو استمهل لكان أمره في ذلك عند أهل الفضل هينًا، لكن لو قيل له مكان، لهنك "ما أصل القسم، وحكم حروفه وما الحروف الخمسة المشبهة بالأفعال التي كون الاسم بعدها منصوبًا وخبره مرفوعًا فلم يجب لحكم عليه بأنه لم يشام صناعة النحو قط.

فهذا الفصل بين الأمرين. والذي جمعناه في مؤلفنا هذا مفرق في أصناف العلماء المتقدمين – رضي الله عنهم – وجزاهم عنا أفضل الجزاء وإنما لنا فيه اختصار مبسوط أو بسط مختصر أو شرح مشكل أو جمع متفرق.

وكتاب الصاحبي يضم مباحث عدة:

أ– بعضها يهم الباحث في فقه اللغة وهذه المباحث هي التي ابتدأ بها الكتاب. كالكلام على نشأة اللغة وبيان أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها، وأنه لا يحيط بها إلا نبي، والكلام على لغات العرب المختلفة. وبيان فصيحها ومذمومها، ومظاهر اختلافها، وبيان أن اللغة العربية قياس وتطور اللغة بمجيء الإسلام، وغير ذلك من المباحث المهمة التي لا غنى عنها لدارس فقه اللغة.

ب– أمّا بعضها الآخر فمباحث نحوية وصرفية وصوتية وبلاغية.

نشأة اللغة وتطورها

مدخل: نشأة اللغة وتطورها: لم يحظ أي موضوع لغوي بالنظر فيه، والكتابة عنه. واختلاف المذاهب فيه مثل ما حظى به هذا الموضوع ومع هذا فلم يصل الباحثون فيه إلى رأي سديد يقتنع به الباحث، وسنذكر أولًا رأي ابن فارس في هذا الموضوع يقول ابن فارس: باب القول على لغة العرب أتوقيف أم اصطلاح؟

أقول: **إن لغة العرب توقيف،** ودليل ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[البقرة: 31]، فكان ابن عباس يقول: علمه الأسماء كلها وهي هذه التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وروى خصيف عن مجاهد قال: علمه اسم كل شيء. وقال غيرهما: إنما علمه أسماء الملائكة. وقال آخرون: علمه أسماء ذريته أجمعين. والذي نذهب إليه في ذلك ما ذكرناه عن ابن عباس. فإن قال قائل: لو كان ذلك ما تذهب إليه لقال: "ثم عرضهن أو عرضها" فلما قال: "عرضهم" علم أن ذلك لأعيان بني آدم أو الملائكة؛ لأن موضوع الكناية

في كلام العرب يقال لما يعقل "عرضهم" ولما لا يعقل "عرضها أو عرضهن" قيل له: إنما مثال ذلك والله أعلم؛ لأنه جمع ما يعقل وما لا يعقل فطلب ما يعقل، وهي سنة من سنن – العرب، أعني "باب التغليب". وذلك كقوله جل ثناؤه: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾[النور: 45] فقال: "منهم" تغليبًا لمن يمشي على رجلين وهم بنو آدم. فإن قال: أفتقولون في قولنا سيف وحسام وعضب إلى غير ذلك من قوله توقيف حتى لا يكون شيء منه مصطلحًا عليه؟ قيل له كذلك تقول: وعلى صحة ما نذهب إليه إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه، ثم احتجاجهم بأشعارهم، ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحًا لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم أولى منافي الاحتجاج لو اصطلحنا على لغة اليوم ولا فرق.

3– كتب الأدب والنقد:

الكامل في اللغة والأدب للمبرد(ت: 285هـ)

المبرد(ت: 285هـ): محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي البصري أبو العباس النحوي اللغوي الأديب. ولد بالبصرة، وأخذ عن أبي عمر الجرمي وأبي عثمان المازني، وقرأ عليهما "كتاب سيبويه"، وأخذ عن أبي حاتم السجستاني، وأخذ عنه أبو بكر محمد بن يحيى الصولي ونفطويه وأبو علي الطوماري وغيرهم. وكان إمام العربية ببغداد، وإليه انتهى علمها بعد طبقة الجرميّ والمازنيّ، وكان حسن المحاضرة فصيحا بليغا مليح الأخبار ثقة فيما يرويه، كثير النوادر فيه ظرافة ولباقة، وكان الإمام إسماعيل القاضي يقول: ما رأى محمد بن يزيد مثل نفسه. وإنما لقّب بالمبرد لأنه لما صنف المازنيّ "كتاب الألف واللام" سأله عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب، فقال له المازني: قم فأنت المبرّد – بكسر الراء – أي المثبت للحق، فحرّفه الكوفيون وفتحوا الراء. وقال السيرافي: سمعت أبا بكر ابن مجاهد يقول: ما رأيت أحسن جوابا من المبرد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم، ولقد فاتني منه علم كثير لقضاء ذمام ثعلب. وقال السيرافي أيضا: سمعت نفطويه يقول: ما رأيت أحفظ للأخبار بغير أسانيد من المبرد وأبي العباس ابن الفرات. وقال المفجع البصريّ: كان المبرد لكثرة حفظه للغة وغريبها يتهم بالوضع فيها، فتواضعنا على مسألة نسأله عنها لا أصل لها لننظر ماذا يجيب، وكنا قبل ذلك تمارينا في عروض بيت الشاعر: أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشرّ أهون من بعض

فقال البعض: هو من البحر الفلاني، وقال آخرون: هو من البحر الفلاني وتردد على أفواهنا من تقطيعه «ق بعضا، ثم ذهبنا إلى المبرد فقلت له: أيدك الله تعالى، ما القبعض عند العرب؟ فقال: هو القطن، وفي ذلك يقول الشاعر:

كأنّ سنامها حشي القبعضا.

قال فقلت لأصحابي: ترون الجواب والشاهد، فإن كان صحيحا فهو عجب، وإن كان مختلقا على البديهة فهو أعجب.[معجم الأدباء: 6/2678-2681]

الكامل في اللغة والأدب: لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحويّ، شرحه محمد بن يوسف المازني(السرقسطي)(ت: 538هـ)، وروى عنه هذا الكتاب أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش النحوي(ت: 315هـ).

قال في مقدمته: هذا كتاب يجمع فنون الآداب بين منثور وشِعْر مَرصوف ومَثَل سائرٍ، وموعظة بالغة، واختيار من خُطبة شريفة، ورسائل لطيفة، والنِّيَّة فيه أن يُفَسِّرَ كلّ ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب، أو معنى مُسْتغْلق، وأن نشرح ما يَعْرض فيه من الإعْراب [الإغراب] شرحاً شافياً؛ حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً، وعن أن يُرْجَعَ واحد في تفسيره الى غيره مستغنياً. ومعنى هذا أن المبرد أتى بالنصوص المختارة في كتابه لتخدم غرضا لغويًا أو نحويًا، وهو مجال اهتمامه الأول، لأنه عصره كان عصر تخصص في العلوم، فكان كل أديب يعرف مجال تخصّصه، وبناء على ذلك كان يوظف المادة التي حفظها واستوعبها هو وغيره من رجال عصره، فإذا كان الجاحظ(ت:) قد أودع كتابه "البيان والتبيين" مجموعة من المختارات الأدبية الرائعة فقد كان يهدف من ذلك إلى أن يستشهد بها على وجوه البيان والفصاحة والبلاغة التي استخلصها. فإنّ المبرد استخدمها استخداما آخر، وذلك بقصد الكشف عن المشكلات اللغوية والنحوية، ولذلك قال في مقدمة كتابه: مكتف بنفسه. وذلك عن طريق تقديم النصوص وشرحها. وقد أثار المبرد في كتابه مشكلات لغوية ونحوية هي من صميم البحث العام في اللغة والنحو، ومثال ذلك البحث في وظيفة حروف الاستفهام إذا كانت أسماء. وقد ذكر ذلك عند ذكره لعهد أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة لعمر رضي الله عنه. وما ورد فيه من قوله تعالى: ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾[الشعراء: 227]، فقد قال: نُصب "أيّ" بقوله "ينقلبون"، ولا يكون نصبا بـ"سيعلم"؛ لأن حروف الاستفهام إذا كانت أسماء امتنعت مما قبلها كما يمتنع ما بعد الألف [همزة الاستفهام] من أن يعمل فيه ما قبله، وذلك قولك: "علمت زيدًا منطلقًا"، فإن أدخلت الألف قلت: "علمت أزيد منطلق أم لا؟"، فأيٌّ بمنزلة زيدٍ الواقع بعد الألف، ألا ترى أن معناها: أذا أم ذا؟ قال الله عزّ وجلّ: ﴿ لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ﴾[الكهف: 12]؛ لأن معناها: أهذا أم هذا؟ وقال الله تعالى: ﴿ فلينظر أيها أزكى طعامًا ﴾[الكهف: 18] على ما فسرت لك. وتقول: أعلم أيُّهُم ضرب زيدًا، وأعلم أيهم ضرب زيدٌ، تنصب أيًّا بـ"ضرب"؛ لأنَّ زيدًا فاعل، فإنَّما هذا لما بعده، وكذلك ما أضيف إى اسم من هذه الأسماء المستفهم بها نحو: قد علمت غلام أيِّهم في الدار، وقد عرفت غلامُ من في الدار، وقد علمت غلامَ من ضربت، فتنصبه بـ"ضربت". فعلى هذا مجرى الباب.[الكامل:]

مثال ذلك شرحه لكلمة "تلجلج" التي وردت في رسالة عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في قوله: "الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب أو سنة"، ولو أن المبرد يهدف إلى شرح النص وحسب لاكتفى بشرح "تلجلج" بأنها "تردد" كما قال، ولكنه بحث في أصول الكلمة وطرق استخدامها نثرا وشعرا، مستشهدا في ذلك بما حفظه من ششعر ونثرٍ، وكأنه يصنع في ذلك صنيع مؤلفي المعاجم اللغوية. وهذا دليل قوي على أنّ الكامل موسوعة لغوية ونحوية وليس مجرد شرح لنصوص راقية مختارة.

وعليه فمنهج المبرد في الكامل هو **نصوص منتقاة بعناية فائقة** من حديث نبوي شريف **مشروحة شرحا لغويا ونحويا** مع الاستشهاد على ذلك **بنصوص شعرية أو نثية**، ثم يتبع النص المشروح بنص آخر منتقى بعناية فائقة كأن يكون

خطبة أو رسالة مشهورة لفصحاء الخلفاء أو الحكام، وهكذا. فالكامل مختارات من الشعر والنثر والأمثال والحكم، وإيضاحات لغوية، وشروح نحوية، ولمحات نقدية، **وهو بحق اسم على مسمى (الكامل)**.

والكامل وإن كان قائما على أبحاث لغوية ونحوية فإنه **لا يخلو من آراء نقدية** حينما يعلق على أبيات الشعر بعبارات عامة تنم عن ذوقه الشخصي، ولكنها لا تعالج قضية من القضايا النقدية كما في البيان والتبيين على سبيل التمثيل. وبناء عليه يمكن أن نقول إن المبرد مس ثلاث قضايا نقدية اهتمت بها كتب البلاغة والنقد وبحثت فيها كثيرا وهي قضية اللفظ والمعنى، (اهتم بها المعتزلة)، قضية الجديد والقديم، ثم قضية السرقات الشعرية. هذا ولم يخل الكتاب من أدب الخوارج لقد عقد لأدبهم بابا هو التاسع والأربعون وتضمن بعضا من رسائلهم وأشعارهم ونوادرهم وقصصهم. **ولهذا يعد الكامل بحق مصدرا أساسيا من مصادر التراث العربي** في مادته الأدبية واللغوية والنحوية، فهذا ابن خلدون يعده ضمن أربعة كتب أساسية في البحث وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد والنوادر لأبي علي القالي.

معجم الشعراء للمرزباني(ت: 378هـ)

المرزباني(ت: 378هـ): حدث عن أبي القاسم البغوي، وأبي حامد محمد بن هارون الخضرمي، وأحمد بن سليمان الطوسي، وأبي بكر بن دريد، وأبي عبد الله نفطويه، وأبي بكر ابن الأنباري، ومن طبقتهم وبعدهم. حَدَّثَنَا عنه القاضيان أبو عبد الله الصيمري، وأبو القاسم التنوخي، وعلي بن أيوب القمي، والحسن بن علي الجوهري، ومحمد بن محمد بن المظفر الدقاق، وغيرهم. وكان صاحب أخبار ورواية للآداب، وصنف كتبا كثيرة في أخبار الشعراء المتقدمين والمحدثين على طبقاتهم، وكتبا في الغزل والنوادر، وغير ذلك. وكان حسن الترتيب لما يجمعه غير أن أكثر كتبه لم تكن سماعا له، وكان يرويها إجازة، ويقول في الإجازة أَخْبَرَنَا، ولا يبينها قَالَ لي علي بن أيوب القمي: يقال: إن أبا عبيد الله أحسن تصنيفا من الجاحظ. وَحَدَّثَنِي علي بن أيوب، قَالَ: دخلت يوما علي أبي علي الفارسي النحوي، فقال: من أين أقبلت؟ قلت: من عند أبي عبيد الله المرزباني. فقال: أبو عبيد الله من محاسن الدنيا قَالَ لي علي بن أيوب وكان عضد الدولة يجتاز على داره، فيقف ببابة حتى يخرج إليه أبو عبيد الله فيسلم عليه ويسأله عن حاله. قَالَ ابن أيوب وسمعت أبا عبيد الله يقول: سودت عشرة آلاف ورقة، فصح لي منها مبيضا ثلاثة آلاف ورقة. حَدَّثَنِي القاضي أبو عبد الله الحسين بن علي الصيمري، قَالَ: سمعت أبا عبيد الله المرزباني، يقول: كان في داري خمسون، ما بين لحاف ودواج معدة لأهل العلم الذي يبيتون عندي. قَالَ الصيمري وأكثر أهل الأدب الذين روى عنهم سمع منهم في داره، وَقَالَ لي الأزهري: كان أبو عبيد الله معتزليا، وصنف كتاب جمع فيه أخبار المعتزلة، ولم أسمع منه شيئا لكن أخذت لي إجازته بجميع حديثه، وما كان ثقة. وَحَدَّثَنِي الأزهري أيضا، قَالَ: كان أبو عبيد الله ابن الكاتب يذكر أبا عبيد الله المرزباني ذكرا قبيحا، ويقول: أشرفت منه على أمر عرفت به أنه كذاب قلت: ليس حال أبي عبيد الله عندنا الكذب، وأكثر ما عيب عليه المذهب، وروايته عن إجازات الشيوخ له من غير تبيين الإجازة، فالله أعلم؛ وقد ذكره محمد بن أبي الفوارس، فقال: كان يقول بالإجازات، وكان فيه اعتزال وتشيع. أَخْبَرَنَا أحمد بن محمد العتيقي، وهلال بن المحسن، قالا: سنة أربع وثمانين وثلاث

مائة فيها توفي أبو عبيد الله المرزباني. قَالَ هلال: ليلة الجمعة، وَقَالَ العتيقي: في يوم الجمعة الثاني من شوال. قَالَ هلال: وكان مولده سنة ست وتسعين ومائتين. وَقَالَ العتيقي: وكان مذهبه التشيع والاعتزال، وكان ثقة في الحديث حَدَّثَنِي التنوخي، قَالَ: مات المرزباني في ليلة الجمعة لليلتين خلتا من شوال سنة أربع وثمانين وثلاث مائة، وصلى عليه أبو بكر الخوارزمي الفقيه، وحضرت الصلاة عليه، ودفن في داره بشارع عمرو الرومي في الجانب الشرقي.

وصنّف كتبا كثيرة في أخبار الشعراء والأمم والرجال والنوادر، وله من التصانيف: أخبار الشعراء المشهورين والمكثرين من المحدثين وأنسابهم وأزمانهم أولهم بشار بن برد وآخرهم ابن المعتز عشرة آلاف ورقة. أخبار أبي تمام نحو مائة ورقة. أخبار أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة أكثر من مائة ورقة. أخبار الأولاد والزوجات والأهل وما جاء فيهم من مدح وذم نحو مائتي ورقة. أخبار البرامكة من ابتداء أمرهم إلى انتهائه مشروحا نحو خمسمائة ورقة. أخبار عبد الصمد بن المعذل الشاعر. أخبار محمد بن حمزة العلاف نحو مائة ورقة. أشعار النساء نحو ستمائة ورقة. أشعار الجن المتمثلين فيمن تمثل منهم بشعر أكثر من مائة ورقة. الأنوار والثمار فيما قيل في الورد والنرجس وجميع الأنوار من الأشعار وما جاء فيها من الآثار والأخبار، ثم ذكر الثمار وجميع الفواكه وما جاء فيها من مستحسن النظم والنثر. تلقيح العقول، أكثر من مائة باب، وهو أكثر من ثلاثة آلاف ورقة. الرياض في أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمحدثين. شعر حاتم الطائي. كتاب الأزمنة ألف ورقة، ذكر فيه أحوال الفصول الأربعة والحرّ والغيوم والبروق والرياح والأمطار وأوصاف الربيع والخريف وطرفا من الفلك وأيام العرب والعجم وسنيهم وما يلحق بذلك من الأخبار والأشعار. كتاب الأوائل في أخبار الفرس القدماء وأهل العدل والتوحيد وشيء من مجالسهم نحو ألف ورقة. كتاب الدعاء نحو مائتي ورقة. كتاب ذم الحجاب نحو مائتي ورقة. كتاب ذم الدنيا نحو خمسمائة ورقة. كتاب الشباب والشيب نحو ثلاثمائة ورقة. كتاب الزهد وأخبار الزهاد. كتاب الشعر وهو جامع لفضائله وذكر محاسنه وأوزانه وعيوبه وأجناسه وضروبه ومختاره وأدب قائليه ومنشديه وبيان منحوله ومسروقه وغير ذلك. كتاب الفرخ نحو مائة ورقة. كتاب العبادة نحو أربعمائة ورقة. كتاب المحتضرين نحو مائة ورقة. كتاب المراثي نحو خمسمائة ورقة. كتاب المغازي ثلاثمائة ورقة. كتاب نسخ العهود إلى القضاة نحو مائتي ورقة. كتاب الهدايا نحو ثلاثمائة ورقة. كتاب المديح في الولائم والدعوات نحو خمسمائة ورقة. المتوج في العدل وحسن السيرة أكثر من مائة ورقة. المرشد في أخبار المتكلمين نحو مائة ورقة. المستطرف في الحمقى والنوادر نحو ثلاثمائة ورقة. المشرف في حكم النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه ومواعظه ووصاياه. المفصل في البيان والفصاحة نحو ثلاثمائة ورقة. المزخرف في الإخوان والأصحاب أكثر من ثلاثمائة ورقة. "المعجم" ذكر فيه الشعراء على حروف المعجم فيه نحو خمسة آلاف اسم، ألف ورقة. المقتبس في أخبار النحويين البصريين، وأول من تكلم في النحو وأخبار القراء والرواة من أهل البصرة والكوفة، نحو ثمانين ورقة. الموسع فيما أنكره العلماء على بعض الشعراء من كسر ولحن وعيوب الشعر ثلاثمائة ورقة. المنير في التوبة والعمل الصالح، نحو أربعمائة ورقة. المفيد في أخبار الشعراء وأحوالهم في الجاهلية والإسلام ودياناتهم ونحلهم، نيف وخمسة آلاف ورقة. المونق في أخبار الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين على طبقاتهم نيف وخمسة آلاف ورقة. الواثق في وصف أحوال الغناء وأخبار المغنين والغناء والمغنيات الإماء والأحرار، وله غير ذلك. [تنظر ترجمته في تاريخ بغداد(227/4)، ومعجم الأدباء(2582/6-2583)].

معجم الشعراء: ألف المرزباني معجمه بعد أن استوفى العدة العلمية لذلك فقد ألم بدراسة الشعر والشعراء منذ العصر الجاهلي حتى عصره، وألف في ذلك كتبا كثيرة، فقد فكر في وضع معجم يضم كل شعراء العرب حتى عصره، ومما لا شك أنه استفاد ممن ألف قبله في هذا المجال أو عاصره، فلربما أوحى إليه صنيع معاصره الآمدي(ت: 370هـ) في معجمه المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء، ففيه أرخ للشعراء الذين تشابهت أسماؤهم وهم مختلفون، فقد ذكر أن امرأ الفيس لقب لعشرة شعراء مشهورين، وسبعة عشر شاعرا تسمى أو تلقب بالأعشى، وقد راعى في ذكر الشعراء الترتيب الأبجدي، فربما أوحى هذا للمرزباني بوضع معجمه للشعراء مرتبا على حروف المعجم. يقول ابن النديم في وصف هذا المعجم: وكتاب المعجم له(للمرزباني) ذكر فيه الشعراء على حروف المعجم، بدأ بمن أول اسمه ألف إلى حرف الياء، وفيه خمسة آلاف اسم، وفيه من شعر كل واحد منهم أبيات فيه يسيرة من مشهور شعره فيه ألف ورقة. غير أن ما وصل إلينا ناقص إذ يبدأ من حرف العين ولا وجود فيه لحروف الغين واللام والنون والواو، كما أنه خلا من مقدمة تصدر المعجم، وهذا الأمر بدع من منهج المرزباني في تآليفه الكثيرة التي لا تخلو من مقدمة. وهذا دليل على أن المعجم وصل إلينا منقوصا.

ومنهج المرزباني في معجمه أنه يترجم للشعراء بتسلسل في أسمائهم الواقعة تحت الحرف الأبجدي الواحد تسلسلا تاريخيا من لدن العصر الجاهلي وإلى غتية عصره، فمثلا في حرف العين ترجم لامن اسمه عمرو من الجاهليين، ثم الإسلاميين ثم للذين عاشوا في العصر الأموي والعصر العباسي وصولا إلى زمانه، وهو في ترجمته للشاعر يبدأ بذكر اسمه ونسبه كاملا ثم كنيته، ثم يتبعه بذكر أهم صفات الشاعر المترجم له، فإن كان كريما أو فارسا شجاعا أورد له أو لغيره شعرا يؤكد هذه الصفة أو الصفات، ثم يذكر أهم حادثة أو موقف عاشه الشاعر في حياته، ويشير إلى أهم ما قاله الشاعر أو قاله غيره في هذه المناسبة من الشعر. فهو مثلا عندما ترجم لعمرو بن قميئة قال: وكان امرؤ القيس استصحبه لما شخص إلى قيصر يستمده على بني أسد، فمات في سفره ذلك، فسمته بكرٌ عمرًا الضائع، وقد عناه امرؤ القيس في قوله:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقون بقيصرا

فقلت له: لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ويجتهد المرزباني في تحديد عصر الشاعر إما عن طريق ذكر تاريخ ميلاده ووفاته، كما فعل مع ابن الرومي مثلا، أو ذكر تاريخ الوفاة فحسب كما فعل مع الشاعر علي بن إبراهيم الخزاعي، وأبي الحسن علي بن العباس النوبختي وغيرهما، فإن كان الشاعر ممن لا يعرف له تاريخ ربطه بشخصية تاريخية معاصرة له، أو بحادثة تاريخية مشهورة.

وفي نهاية الترجمة يأتي المرزباني بنموذج شعري من أجود شعر المترجم له، دون أن يكثر لأنه بصدد مئات من الشعراء الذين يترجم لهم، وهو في إيراده للنموذج الشعري يحاول دوما أن يكون مرتبطا بموقف معين للشاعر أو حادثة مشهورة له، فهو مثلا في ترجمته لشاعر اسمه أبو حنش عصم بن النعمان يقول: وقيل هو أحد بني ثعلبة بن بكر، وهو فارس العصا، وهو قاتل شرحبيل الملك بن الحارث بن عمرو المقصور بن حجر آكل المرار الكندي يوم الكُلاب، وكان بين شرحبيل وبين أخيه سلمة شيء، فجعل سلمة في رأس أخيه مائة من الإبل، فقتله أبو حنش وبعث برأسه فطرحه بين يدي أخيه، فلما نظر إليه سلمة وثار الدم في وجهه وقال: ألا أبلغ أبا حنش رسولافمالك لا تجيء إلى الثواب

تعلّم أن خير الناس طرًّا قتيل بين أحجار الكُلاب.

فأجابه أبو حنش: أحاذر أن أجيئك ثم تحبو حباء أبيك يوم صنيبعات

وكانت غدرة شنعاء سارت تقلّدها أبوك إلى الممات.

يعني أباه الحارث كان له ابن مسترضع بين حيين من العرب، تميم وبكر فمات، وقالوا لدغته حية، فأخذ خمسين رجلا من بني وائل فقتلهم. **والمرزباني ذا معرفة واسعة بالشعر** وهو أمر ظاهر في معجمه، **وهو كثير التحري** في الشعر ليميز بين الشعر الأصلي والمنتحل، وليكشف سرقات الشعراء. فهو يعارض محمد بن داود فيما ادعاه من نسبة أبيات للشاعر عمرو بن الحارث بن عمرو الملك قالها في رثاء شرحبيل بن الحارث الذي قتلته تغلب يوم الكُلاب، ويقول: هي أبيات تروى لأخيه معدي كرب بن الحارث، وهو الصحيح، وعلى الرغم من كثرة أخذه برواية محمد بن داود فهذا لا يمنعه من المعارضة له إذا كان واصقا من روايته هو نفسه. وهو إذا عدم رأيا خاصًّا في الأبيات التي تروى لأكثر من شاعر يكتفي بذكر من يروى له من الشعراء هذا البيت أو الأبيات. فقد قال بمناسبة ذكره لأبيات للشاعر عمرو بن حني التغلبي: أبو عبيدة وغيره يروون هذه الأبيات لجابر بن حني التغلبي. ولم يعلق على ذلك بشيءٍ.

فمن أجل كل هذا يعد هذا المعجم من أهم معاجم الشعراء، ولا غنى لأي باحث عنه في تراث الشعر العربي في عصرنا هذا، فهو بحق مصدر يزودنا بمعلومات عن الشعراء ولا سيما المغمرين منهم، ويزودنا بحقائق عن الأحداث والوقائع المتصلة بهم. **ومما يؤاخد عليه المرزباني في معجمه** أنه يهمل ألقاب الشعراء بل يذكرهم بأسمائهم كما فعل مع طرفة والفرزدق، مما يجعل البحث عنهم والوصول إلى ترجمتهم أمرا عسيرًا، كما يؤاخذ عليه عدم مراعاة الدقة في الترتيب الأبجدي بعد الحرف الأول فهو مثلا يذكر اسم عمرو قبل عديّ ويلي ذلك عثمان ثم العباس.